من بلاغة القرآن في حادثة الإفك

الدكتور

عبد الله بن أحمد محمد العمري

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١ ـ ١٤٣٢هـ.

من بلاغة القرآن في حادثة الإفك

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين أما بعد .

فإن بلاغة القرآن الكريم شموخ لا يتناهى، وقامة عالية لا يصل إلى مداها المتعمقون في البلاغة العربية وبيانها ، وإن القرآن الكريم ببلاغته يفيض ببيانه المعجز ، ونظمه المبهر في كل موضوع من موضوعاته ، فهو يعالج كل قضية بما يتلاءم معها من عمق اللفظة ، وجمال التركيب ،وبديع الصورة، وإشراق المحسن في اللفظ والمعنى.

ومن موضوعات القرآن التي عالجها ، وبين الحكم فيها وأظهر حقيقتها موضوع حادثة الإفك التي هزت المجتمع المسلم في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فترة من الزمن ، حتى وقع في الوزر من وقع ، وترفع من ترفع ، وكان لهذه الحادثة المؤلمة تبعاتها التي ما يزال يخوض فيها بعض من مرضى القلوب ، مما يتطلب إعادة تذكير الناس بما أظهره الله من الحق حيالها ، وما بينه في حكم الوالغين فيها

وإن من أظهر ما يوضح السياق القرآني ويبرز خصائصه هو دراسته بلاغياً ، وهذا ما جعلني أختار هذا البحث لعلي أساهم في تجلية بلاغته، وإبراز بيانه وفصاحته ، خدمة لكتاب الله الكريم وسوف يكون البحث قائماً على أسرار الموضوع البلاغية في مفرداته وتراكيبه ، وصوره وأخيلته ، ومحسناته اللفظي منها

والمعنوي بطريقة التتابع الجمالي بعيداً عن التقسيمات والتفريعات التي كان لها الأثر في إقصاء جمال البلاغة والبيان، آملاً أن أوفق في إعطاء الموضوع حقه من التوضيح والإبانة. والله المستعان والمؤمل.

من أسرار المفردات :

قال الله تعالى: ((إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم)).

إن حجر الزاوية في هذا النظم الكريم ، هو كلمة الإفك ، فعليها مدار الحديث في الموضوع كله ، وفي اختيارها تحديد ما يشي بما وراءها من قول ، فالإفك كما عرّفه علماء اللغة هو من : ((أفكه عن رأيه : صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير .... ورأيت أن أفعل كذا فأفكت عن رأيي)) ((١)).

ومنه(ائتفكت) الأرض: انقلبت بمن عليها و – الرياح: هبت من كل ناحية. و – القوم اضطربوا وانقلبت أحوالهم من الخير إلى الشر)) ((٢)).

١– أساس البلاغة للزمخشري صـــ٨ .

٢– المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية جـــ١ صـــ٢٨.

و((أفكته)) صرفته وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك)) ((١)).

" والأفاك الذي يأفك الناس أي يصدهم عن الحق بباطله .

والمؤتفكات مدائن لوط ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، سميت بذلك لانقلابها بالخسف)) ((٢)).

((والإفك أسوأ الكذب وأقبحه، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذ قلبه عن وجهه ، فالإفك هو الحديث المقلوب .....، قال الواحدي ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر : أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة ، وشرف النسب والسبب لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر من وجهه ، فهو إفك قبيح وكذب ظاهر)) ((٣)).

وتظهر دقة التعبير في اختيار اللفظة مع كثر الألفاظ التي يفهم من معناها المقصود، ولكن لا يبلغ غيرها ما تبلغه من الدلالة على المعنى البشع الذي تمثله حادثة الإفك.

ويلحظ تعريفها بالألف واللام باعتبارها أم الكذب ، والبهتان ،

١- المصباح المنير للفيومي صـ١٤.

٢- لسان العرب لابن منظور جـ١ صـ٧٥.

٣- فتح القدير للشوكاني صـ١٨١-١٨٢.

والتقول بغير حق . وفي اختيار الفعل (جاء) دقة تتناسب مع دقة الإفك نفسها فالمجيء هو: ((إتيان من أي وجه كان)) ((١)).

وهكذا جاء المنافقون بفريتهم كما تهب الرياح من كل ناحية وهذا معنى الإفك كما مر .

(وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهر وه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل)) ((٢)).

((عصبة))

((قال الخليل: هم من الرجال عشرة، ولا يقال لما دون ذلك عصبة وإنما سميت عصبة لأنها قد عصبت، أي كأنها ربط بعضها إلى بعض)) ((٣)).

وفي اختيار لفظ ((عصبة)) دقة تفي بالغرض وتوحي بالمراد ، فلو قال : فئة ، أو جماعة ، أو مجموعة ، لأدت المفهوم ولكنها لن تفي بما وفت بت كلمة عصبة التي فيها معنى التعصب ، والارتباط القسري .

ثم إن الأمر لا يقف عند المعنى اللغوي بل يتعداه إلى الإيحاء الصوتي ، فان كلمة الإفك بما فيها من كسرة الهمزة ، ثم الضغط على الشفة السفلى بأسنان الفك العلوي ، ثم انطلاق النطق بحرف الكاف ، مما يصور الاضطراب النطقي في لفظ الكلمة ، كما هو الاضطراب في معناها وفحواها .

١- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـــ٣٠٦ .
٢- تفسير أبي السعود صـــ٩٧.
٣- مقاييس اللغة العربية لابن فارس صـــ٧٨٢

وكذلك نطق كلمة عصبة ، بضم العين والصاد حيث يبقى الفم على حالته من ضم الشفتين في شكل دائري يوحي كذلك ويصور حالة الربط والعصب بين إطار الفم ،وهذا يتناسب تماما مع المعنى المراد من الكلمة في تركيب الجملة .

" لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ".

" وفي التعبير عنه بالذي وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظيم من تهويل الخطب مالا يخفي " ((١)). وفي اختيار لفظة ((تولى)) هنا مالا يخفي من إمعان المذكور في تبني قضية الإفك وإعلانها وتزيينها. والتولي مأخوذ من ولي الشيء ((وليه وليا: دنا منه، وأوليته إياه: أدنيته... وولي الأمر وتولاه ، وهو وليه ومولاه)) ((٢)).

فالمعبر عنه بالذي في الآية قد خاض في حادث الإفك ، وقام باستحضاره وإشاعته في الناس ، وإغراء الناس بقبوله ، والخوض في مستنقعه ((وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم))

١- تفسير أبي السعود جـ٤ صـ٩٨.

٢- أساس البلاغة للزمخشري صـ٥٠٩.

ومن لفظ المفرد هين يتبين المراد منها ، فانطلاق النفس بنطق الحرف الهاء الحلقي ، وتناقص انفتاح الفم أثناء النطق بالياء ، ثم حركة اللسان مع مؤخرة أصول أصناف الفك العلوي تعطي إيحاء بالمعنى المراد ، وكأن الخائضين رأوا في الخوض بحديث الافك أمرا سهلا ، بل أسهل من السهل ، ولذا قابله تعالى بقوله ((وهو عند الله عظيم)) فلفظة عظيم على طرف النقيض من لفظة ((هين))

فالنطق بالعين المفتوحة لا يتم حتى يتحفز أعلى الحلق بكامل دائرته، ثم ينتقل النطق من العين إلى الظاء ليكون بوضع اللسان بين أسنان الفك العلوي وأسنان الفك السفلي بشكل يكاد يشرك مقدمة الفم بالنطق ، ثم انطلاق الصوت من أسفل الحلق للنطق بحرف المد الياء ،ثم إطباق الشفتين للنطق بالميم وفي هذا التنقل بين آخر الفم ، وأوله ما يعطي اللفظة بعدا دلاليا على ما تشي به من معنى ، وما يترتب عليه من عاقبه . ((ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا إن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)).

البهتان اسم من ((بهته يبهته)) بفتحتين ((فبهت)) بالبناء للمفعول و ((بهتها بهتا)) من باب نفع قذفها بالباطل وافترى عليها الكذب"((١)).

وفي هذه الآية استعمل اسم الإشارة مرتين ويفيد : ((تميز الحدث وكمال إبرازه بالإشارة إليه : ((إن نتكلم بهذا ... سبحانك هذا ...))

١- المصباح المنير – الفيومي صـ٣٨.

وقد جعل الحكم عليه بأنه : ((بهتان عظيم)) يقع موقعه في الأنفس، ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض في هذه الحادثة " ((١)).

((وفي هذا الآية الكريمة نوع من الأدب الذي يجب إن يكون عليه المسلم فليس كل أمر يكون للإنسان إن يخوض ويلغ ويرغي ويزبد، بل هناك من المسائل ما يقتضي من الإنسان الكامل الكف عن الكلام فيها ، لان الكلمة قد تكون جارحة ، وقد يكون جرحها غير مندمل على نحو ما يقول الشاعر :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فيحسن إذا سمع المسلم الخوض في الأعرا ض يرتفع عن المشاركة، وبخاصة إذا كان ذلك الخوض محصلة ظنون مريضة، وأوهام حاقدة. ((٢)).

ومما تكرر استعماله في هذا الموضوع لولا ولها عند أهل اللغة عدة استعمالات منها ((الدلالة على التخصيص وتختص حينئذ بالفعل...

فإن قصد بها التوبيخ كان الفعل ماضيا)) ((٣)).

١-علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني د. بسيوني عبد الفتاح منود صـــــ١٠٠.

٢- بلاغة التركيب دراسة في علم المعاني أ.د.توفيق الفيل .

٣- شرح ابن عقيل بهاء الدين عبد الله بن عقيل صـ١٦٠-١٦١ بتصرف

((لولا إذ سمعتموه)) ((لــولا جــاءوا عليــه)) ((ولــولا إذ سمعتموه))

ويلحظ أن ((إذ)) وسطت بين لولا والفعل الماضي الذي بعــدها في الموضع الأول والثالث ، بينما خلا الموضع الثاني منها فهل تميز الفصل بــ ((إذا)) من اختصاص لولا بالتوبيخ ؟! أم زاد في المعنى تبعا لزيادة المبنى ؟

يقول أهل العلــم : ((وتوســيط الظــروف بــين لــولا وفعلهــا التخصيص والتحضيض بأول زمان سماعهم ، وقصر التوبيخ علــى تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيــه ليفيــد أن عدم الإتيان به رأسا في غاية ما يكون من القباحة والشــناعة ، أي كان الواجب أنيظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوه ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المــؤمنين خيرا.((١)) ويرى ابن هشان ان لــولا ((تكــون للتــوبيخ والتنــديم فتختص بالماضي نحو : ((لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء)) وفيــه ((لولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهــذا)) إلا أن الفعــل أخر .((٢)).

١- تفسير ابي السعود جـ٤ صـ٩٩.

٢- مغنى اللبيب لابن هشام صـــ٣٦١.

أما في قوله تعالى :" ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب أليم ". فقد وقع بعد لولا اسم وهنا تكون لولا : ((دالة على امتناع الشيء لوجود غيره ،... وتلزم حينئذ الابتداء ، فلا تدخل إلا على المبتدأ ، ويكون الخبر بعدها محذوفا وجوبا ، ولابد لها من جواب فإن كان مثبتا قرن باللام غالبا ، وإن كان منفيا بما تجرد عنها غالبا ، وإن كان منفيا بلم لم يقترن بها)) ((١)).

وجواب لولا في هذه الآية ((تقديره لعجل لكم العذاب بسبب افتراء الكذب والتقول بما لم يكن)) ((٢)).

((لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم)) اختار النظم إليكم الفعل ((أفاض)) للتعبير عما تقوله المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وهذه اللفظة لها إيحاؤها البالغ فمعنى ((أفاض القوم في الحديث : انتشروا ، وقال اللحياني هو إذا اندفعوا وخاضوا وأكثروا)) ((٣)).

و ((أفاض القوم في الحديث توسعوا فيه)) ((٤)).

وبهذه المعاني مجتمعة يظهر السر في هذه اللفظة الموحية ، المعبرة عما قام به هؤلاء في حادثة الافك .

١- شرح ابن عقيل بهاء الدين عبد الله بن عقيل جـ٢ صـ١٦٠-١٦١ بتصرف .

٢- كتاب الطراز للعلوي جـ٢ صـ١١٣.

٣- لسان العرب لابن منظور جـ٢ صـ١١٥٥.

٤- المعجم الوسيط جـ٢ صـ٧٠٨.

((ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عـذاب عظيم)).

من المفردات التي يجدر الوقوف عنـد دقـة اختيارهـا الفعـل المضارع ((تشيع)) وهو مأخوذ من ((شاع الخبر في الناس يشـيع شيعا

وشيعانا ومشاعا وشيعوعة ، فهو شائع : انتشر وافتـرق وذاع وظهر. وأشاعه هو وأشاع ذكر الشيء : أطاره وأظهـره . وقـولهم هذا خبر شائع وقد شاع في الناس ، معناه قد اتصل بكل أحد فاستوى علم الناس به ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض)) ((١)).

وهذه المعاني الدقيقة لا يوجد مفردة في اللغـة تفـي بهـا ، وتؤديها على المراد منها للتوافق مع ما قام به أصحاب الإفك مـن إشاعة حديث الإفك ، ونشره حتى اتصل بكل أحـد ، فاسـتوى علـم الناس فيه ، ولهذا كانت عقوبة ذلك عذاب أليم في الـدنيا والآخـرة فكما أشاعوا الفاحشة ، شاع فيهم العذاب في دنياهم وأخراهم .

ومن المفردات ذات الوقع الدلالي وصف المحصنات ب(الغافلات)

١- لسان العرب لابن منظور جـ٢ صـ٣٩٤.

وهذا الوصف ، وهذه المفردة تضفي على الطاهرات من المؤمنات صفة تغني عن كل صفة ، فالغفلة دلالة على البعد عما يظنه المنافقون ، ومن سار في ركبهم ، فالغافلة خالية من القلب والشعور، عن التفكير أو الميل الوجداني ، في الوقوع في الفاحشة فما بالك بمباشرتها وفعلها يقال : ((فلاة غفل : أي لا علم بها ، وساروا في أغفال الأرض . ونعم أغفال : لا سمات عليها ، وفلان غفل : لمن لم تسمه التجارب)) ((١)).

وهكذا يدل الوصف على خلو أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خاصة ، وكل محصنة مؤمنة مما يرمي به أهل القلوب المريضة .

١- أساس البلاغة للزمخشري صـ٣٢٦

من أسرار التراكيب

يستهل الحديث عن واقعة الإفك بجملة خبرية مؤكدة بحرف التوكيد ((إن)) بالإضافة إلى أسميتها ، ومثل هذا يلقى على المنكر أو من ينزل منزلة المنكر ، والمخاطبون بهذا الخبر لا ينكرونه فقد خاض الناس فيه ، ووصل كل بيت ، ويعلمون العصبة الذين خاضوا فيه ولعل السر هنا في تأكيد الخبر أن نزل المخاطب منزلة المنكر باعتبار شناعة الخبر وأن الأصل فيه ألا يحدث في مجتمع المسلمين وفي أفضل البيوت وأظهرها على وجه الأرض .

ثم يأتي اسم ((إن)) اسما موصولا وهو من تعريف المسند إليه و ((فائدة تعريفه إجمالا : أن المعرفة أخص من النكرة ، وكلما كانت أخص ، كانت أتم دلالة على المراد ، لكونه اقل احتمالا لغير المراد من النكرة)) ((١)).

ومن فوائد تعريف المسند إليه بالموصولية ((يفيد تعريف المسند إليه بالموصولية في الإيماء أو الإشارة إلى الجانب الدلالي الذي بني عليه الخبر من مدح أو ذم ، أوعقاب أو ثواب ، أو غير ذلك ، بحيث إن الفطن يمكنه التوصل إلى خاتمة الكلام في ضوء تدبر فاتحته وتفهمها ، ويدرك ما تومئ إليه المقاصد)) ((٢)).

١- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة محمد بن علي الجرجاني صـ٣٦.

٢- علم الجمال اللغوي جـ١ صـ٣٧٨ د. محمود سليمان ياقوت.

وفي هذه الآية الكريمة يأتي الاسم الموصول لهذا الغرض ، فإن وصل الاسم الموصول بقوله تعالى : ((جاءوا بالإفك)) فيه دلالة الذم والعقاب .

يقول عبد القاهر الجرجاني : ((اعلم أن لك في ((الذي)) علما كثيرا ، وأسرارا جمة ، وخفايا إذا بحثت عنها ، وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس ، وتثلج الصدر ، بما يفضى بك إليه من اليقين ، ويؤديه إليك من حسن التبيين)) ((١)).

ثم يأتي خبر ((إن)) نكرة ((عصبة)) والتنكير هنا للتحقير بما يقتضيه الذم الوارد في تعريف المسند إليه بالموصولية والله أعلم ((لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم)).

فصلت الجملة هنا عن سابقتها نظرا لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية ، فالجملة السابقة خبرية كما تقدم ، أما هذه الجملة فهي إنشائية مبدوءة بـ ((لا)) الناهية والنهي من أساليب الإنشاء الطلبي وهذا الفصل يسمى ((كمال الانقطاع)).

ويلحظ الفصل بين هذه الجملة والجملة التي بعدها بحرف ((بل))

وله استعمالات عند أهل اللغة منها وهو ما استعمل له هنا حيث استعمل حرف ابتداء ((وتكون حرف ابتداء إذا وقعت بعد جملة ، فتكون إضرابا عما قبلها على جهة الإبطال . .....

١- دلائل الإعجاز صـ١٩٩.

وقال ابن مالك : ((الواقع بعدها جملة ، فهي للتنبيه على انتهاء غرض واستئناف غيره ، ولا يكون في القرآن إلا على هذا الوجه . فالجملة بعد بل : استئناف لا محل لها)) ((١)).

((وإن تقدمها نفي أو نهي فهي لتقرير ما قبلها)) ((٢)).

وحادثة الإفك كان لها وقعها على نفوس المؤمنين ، وارتجت لها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن الكريم ليقرر للمؤمنين بألا يحسبوا ذلك الأمر شرا لهم . وأن عليهم أن يتحولوا من ذلك إلى اعتباره خيرا لهم ، وفي هذا التعبير ما يجعل قلوب المؤمنين وعقولهم ، وعواطفهم تنتقل من حالة التشاؤم ، والغيظ والريبة ،إلى حالة التفاؤل ، والسرور ، والاطمئنان ((لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم)) في هذا النظم الكريم قدم الخبر ، الجار والمجرور ، ((لكل امرئ)) على المبتدأ ((ما اكتسب من الإثم))

وهذا التقديم يفيد القصر ((وقد أشار علماء البلاغة إلى أن دلالة التقديم على القصر يستطيع ابن اللغة التوصل إليه بناء على القدرة التي يتمتع بها في ذوق الأساليب الرفيعة ، لأن القصر عن طريق التقديم يعتمد في تحصيله على معرفة فحوى الكلام ومفهومه)) ((٣)).

١- الإعراب الكامل للأدوات النحوية عبد القادر أحمد ووليد عبد القادر صـ١١٤.

٢- المنصف في النحو واللغة والإعراب . نصر الدين فارس وعبد الجليل زكريا صـ٦٦.

٣- علم الجمال اللغوي – المعاني – البيان – البديع د. محمد سليمان ياقوت جـ١ صـ٤٠١.

كما أن في تقديم المسند هنا تشويق إلى المسند إليه ، وقد زاد من التشويق هنا توسيط الجار والمجرور ((منهم)) بين المسند والمسند إليه ، وزاد أيضا التشويق إلى المسند إليه مجيئه مصدرا مؤولا من ما والفعل إذ تقديره –والله أعلم– لكل امرئ منهم اكتسب من الإثم ((لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين)).

هـــــــــذا إفك مبين ، جملة اسمية المسند إليه فيها اسم إشارة للقريب ، وقد ذكر أهل البلاغة ما يتفرع على اسم الإشارة من اعتبارات نحو ((أن يقصد به أكمل تمييز ....، أو أن ينبه به على غباوة السامع ، أو أنه لا يميز الشيء إلا ما يحس ، أو على كمال فطانته وبعد إدراكه بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره ....، أو يقصد ادعاء أنه ظهر ظهور المحسوس بالبصر ....، أو اختص بحكم بديع الشأن فلا يغيب عن الحاضر فكأنه نصب عينه ....، أو يقصد بقربه إلى تحقيره)) ((١)).

١– التبيان في البيان للإمام الطيبي صـــ٢٤٣–٢٤٥ بتصرف .

و" تحديد المسند إليه وتمييزه بالإشارة لا يقف عند المدح، بل يأتي أيضا حين يراد بإسناد صفات ذم له وذلك على نحو ما نجد في هذه الآية الكريمة، فمجيء المسند إليه اسم إشارة كان لتمييزه وتحديده، وإسناد صفة الذم إليه" ((١)) .

" وإفادة الإشارة لكمال التمييز تجدها كثيرا في النظم الكريم، وترى لها مذاقا حسنا كما في هذه الآية أيضا، فالحكم على ما وقع وخاض فيه الخائضون بأنه (إفك مبين) بعد الإشارة إليه (هذا) وإبرازه أمام العين، يفيد قوة الحكم وصدق اليقين بأنه (إفك مبين) ((٢))

والمتأمل في اسم الإشارة في هذه الآية يرى أنه يكاد يحوي ويدل على ما ذكر من الأغراض جميعها، فهو وإن قصد به أكمل تمييز، إلا أنه يدل على غباوة السامع، أو أنه لا يميز الشيء الحسن إلا بالحس، والسامع الذي نقل حادثة الإفك معتقدا وقوعها، أوخائضا فيها بغير تثبت، وكذا بقية الأغراض الأخرى من أغراض تعريف المسند إليه بالإشارة.

ومما يلحظ في هذه الجملة أنها أتت جملة خبرية خالية من المؤكدات إلا كونها اسمية، وهذا مما جعل المتكلم لو حصل منه الكلام حسب الإرشاد الإلهي ، لكان تنزيلا للمخاطب المنكر فحوى الخبر، منزلة خالي الذهن باعتبار الخبر مما لا يجادل في كذبه عاقل، ولا يشك في فريته شاك.

١- ـــ بلاغة التراكيب. دراسة في علم المعاني أ.د. توفيق الفيل صـــ٩٧ بتصرف.

٢- علم المعاني ودراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني.د.بسيوني عبدالفتاح فيود صـ٩٩-١٠٠ بتصرف يسير.

" فأولئك عند الله هم الكاذبون"

هذه جملة خبرية اسمية، استهلت باسم الإشارة (أولئك) ((إشارة إلى الخائضين وما فيه من معنى البعد للإيذان بغلوهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر)) ((١)) .

ويلحظ هنا الفصل بين المسند إليه والمسند بالظرف"عند" مضافا إلى لفظ الجلاله؛ وذلك للتشنيع عليهم، فكذبهم عند الله ،ومن كان كاذبا عند الله فمتى يصدق؟ وعند من يكون صادقا.

((ولم يقل:" فأولئك هم الكاذبون"وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه،من دون نصاب الشهادة بالصدق))((٢))

ثم يأتي المسند جملة اسمية " هم الكاذبون" والجملة الاسمية لها قيمتها البلاغية في النظم.

((إن الجملة الاسمية تدل على ثبوت شيء لشيء،..... وربما تفيد الدوام والاستمرار بقرنيه)) ((٣)).

١- تفسير أبي السعود جـ٤ صـ٩٩.

٢- تيسير الكريم الرحمن ابن سعدي صـ٥٦٣

٣- البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني .د. فضل حسن عباس صـ٩٤

ومن هنا فإن إسناد الكذب إليهم عن طريق بناء الجملة الاسمية، يدل على ثبوت الكذب ودوامه واستمراره، ويعد الابتداء بالضمير والإخبار عنه بالاسم المعرف بالألف واللام من التخصيص أو القصر، أي كأن الكذب لا يبرحهم إلى غيرهم، وكأنهم مخصوصون به عن سواهم.

" إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم"

((فذِكر هذين القيدين " بألسنتكم" "بأفواهكم" قد أكد الإنكار والزجر، إذ الآية في سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا في حادثة الإفك، والتلقي لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا بالأفواه، فذكر هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذي اقتضاه المقام))((١)).

((فإن قلت: مامعنى قوله " بأفواهكم" والقول لا يكون إلا بالفم (قلت) معناه أن الشيء المعلوم يكون وعلمه في القلب فيترجم عنه اللسان وهذا الإفك ليس إلا قول تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة)) ((٢))

((وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم أي: تقولون قولا مختصا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب، لأنه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم))((٣)).

١- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني د.بسيوني عبد الفتاح فيود صـ١٧٧

٢- الكشاف للزمخشري جـ٣ صـ٦٦

٣- تفسير أبي السعود جـ٤،صـ١٠٠

" إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الـذين آمنـوا لهـم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون"

أكدت الجملة الخبرية في رأس الآيـة بحـرف التوكيـد "إن" وعادة يرد مثل هذا للمخاطب المتردد في قبول الخبر أو المشـكك فيه، ولعل السر في تأكيد الخير هنا بهذا المؤكد أنه لما سبق في الآيات السابقة قوله تعالى: " وتحسبونه هينا" فناسب هنا أن يؤكد الخبر بهذا المؤكد إزالة للبس حسبانهم، ووقوع المسند إليه اسما موصولا فيه دلالة على: ((الإيماء والإشارة إلى معرفـة الخبـر، وهو قريب مما يسمونه براعة الاستهلال، ومعنى هـذا أن يـذكر المتكلم شيئا في أول حديثه؛ يستطيع أن يدرك الفطن ما سـيجيء من بعده))((١)).

((ويمكنه التوصيل إلى خاتمة الكلام في ضوء تـدبر فاتحتـه وتفهمها، ويدرك ما توحي إليه المقاصد))((٢)).

((ويكون ذلك حين تتضمن صلة الموصول ما يدل علـى نـوع الخبر على الجملة، بحيث يكون في مقدور المتلقي تحديد نوعـه العام بقليل من التأمل)) ((٣)).

١- البلاغة فنونها وأفنانها.علم المعاني.د.فضـل حسـن عبـاس صـــ٣٢٢

٢- علم الجمال اللغوي. المعاني- البيان- البديع.د. محمد سليمان ياقوت ج ١ صـــ٣٧٨

٣- المفصل في علوم البلاغة د. عيسى العاكوب صـــ١١٥

وهذا الغرض من الاسم الموصول يظهر جليا في هذه الآيـــة الكريمة فصلة الموصول محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، والمتلقي بعد ما علم من الآيات السابقة هذه الآية يعلم أن الخبـــر سيكون في عمومه دالا على عقوبة أولئك وسوء مآلهم.

وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى:"والله يعلم وأنتم لا تعلمون" وهذه الجملة من القول البديع المتقن ((وهو حسن الموقع بهـــذا الموضع لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية فـــي الزجر لأن من إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلـــك المحبـــة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وأن علمـــه ســـبحانه بـــذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه))[1]

" ولولا فضل الله عليكم ورحمته و أن الله رؤوف رحيم"

في الجملة الثانية من الآية الكريمة أظهر النظم الكـــريم ماحقـــه الإضمار، فلفظ الجلالة تقدم في الجملة الأولى، ثـــم عطفـــت عليهـــا الجملة الثانية، وكان يفي بالمعنى في غير القـــرآن أن يقـــال وأنـــه رؤوف رحيم وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة،والإشعار باستتباع صـــفة الألوهيـــة للرأفـــة والرحمـــة، وتغييـــر ســـبكه وتصـــديره بحـــــــــــــرف التحقـــــــيق لما أن

١- التفسير الكبير للرازي جـــ٢٣ صـــ١٨٣.

المراد بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة والرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم)) ((١)).

وكما وضع الظاهر موضع المضمر كذلك وضع في الآية التالية لهذه الآية وهي قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان"

فقد ((وضع الظاهران موضع ضميريهما حيث لم يقل:ومن يتبعها أو من يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير))((٢)).

ومن السر في وضع المظهر موضع المضمر هنا زيادة عما ذكر أن خطوات الشيطان مما لا يظهر للعيان وإنما هو تعبير مشرق أريد به كيد الشيطان ومكره وخداعه، فأعيد اللفظ نفسه ليكون أكثر رسوخا في أداء المعنى، وأكثر إشراقا ووضوحا.

وبعد هذه الجملة التي وضع المظهر فيها موضع المضمر والتي تمثل جملة شرطية جاء جوابها " فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر".

١-تفسير أبي السعود جـ٤ صـ ١٠٢.

٢- السابق صـ١٠٣.

فوضع الضمير موضع الاسم الظاهر "فإنه"ولعل في ذلك استبعادا للشيطان، وإسناد الجملة إلى ضميره الدال على غيبته وجاء المسند جملة فعلية ((وإذا أريد الإخبار بالجملة، فإن أريد الحدوث أتي بالجملة الفعلية))((١))

والفعل المضارع في هذه الجملة يدل على التجدد والحدوث، وفي هذا إشعار بتجدد كيد الشيطان واستمراره وخداعه.

((ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله))

وردت أولو في هذه الآية مرتين الأولى مضافة إلى الفضل والثانية إلى القربى ((خاطب بها أبا بكر الصديق لما حرم مسطحا رفده حين تكلم في حديث الإفك))((٢))

وكعادة القرآن الكريم كما أنه يخاطب من الإنسان عقله فإنه أيضا يخاطب عاطفته فانتقى المضاف إليه المناسب في تحريك العاطفة عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي جرح في كرامته بدون حق فأضاف إليه الفضل وفي هذا ما فيه من المدح والتذكير بنعمة الله عليه، وأضاف إلى مسطح القربى باعتبارها من الوشائج المهمة في حياة المسلم.

١- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. محمد بن علي الجرجاني صـــ٧٥.

٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ٢ صـ٢٣٥.

ثم استعمل مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد الأمر بـــالعفو والصفح الحث على طلب المغفرة" وليعفوا وليصفحوا ألا تحبـــون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم"

" ألا" تستعمل للعرض والتحضيض ومعناهما طلـــب الشـــيء لكـــن العرض طلب بلين، والتحضيض طلـــب بحـــث، وتخـــتص ألا هـــذه بالفعلية، نحو: " ألا تحبون أن يغفر الله لكم" ((١)).

" يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" قدم في هذه الآية الكريمة شهادة الألسن نظرا أن حادثة الإفك كان المحرك فيها والمذكي أوارها هو الألسن

" أولئك مبرؤون مما يقولون" أشار إليهم بالبعد لبعد منزلتهم في الطيب، والبراءة ((فأوقع "أولئك" وهو جمع على عائشة وصفوان بـــن المعطل))((٢)).

١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام صـــــ٩٧.

٢- البرهان في علوم القرآن جـــ٤ صـــــ ٣٢.

بين الإيجاز والإطناب

ما كنت لأضع عنواناً مستقلاً خارجاً عن بلاغة التراكيب وعلم المعاني، لولا أني لحظت في حديث القرآن الكريم عن حادثة الإفك مواضع في الإيجاز والإطناب، وتكاد تكرر في الآيات على نمط واحد، ونسق متشابه، والمقصود بالإيجاز كما يعرفه أهل البلاغة ((هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط))((١)).

والإيجاز ((نوعان حذف وغير حذف))((٢)).

وقد ورد منه في الآيات الكريمة المتحدثة عن حادثة الإفك قوله تعالى:" ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم"

دخلت لولا على الآية، ولولا هذه((يقول عنها المعربون انها ((حرف امتناع لوجود)) ومعنى هذه العبارة أن جوابها امتنع لوجودالشرط))

((وتأتي الجملة بعدها كما يلي:

<u>أولاً</u>: جملة الشرط: وهي جملة أسمية يذكر المبتدأ فيها بعد "لولا" ويحذف الخبر وجوبا.

<u>ثانياً</u>: جملة جواب الشرط وهي جملة فعلية.....)) ((٣)).

١- مفتاح العلوم للسكاكي صـ٢٧٧

٢- التبيان في البيان للطيبي صـ ٣١٤.

٣- النحو المصفى .د. محمد عيد صـ ٣٩٣.

وتسمى ((حرف شرط غير جازم، يدل على امتناع شيء بسبب وجود شيء غيره))((١)).

والمهم هنا هو حذف جواب لولا وقدر هنا بـ ((لعجل عذاب فاعل ذلك، وسوغ الحذف طول الكلام بالمعطوف، والطول داع للحذف))((٢))

و((حذف جواب "لولا" للتهويل في " ولولا فضل الله عليكم ورحمته" وذلك حتى يذهب الموهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر))((٣)).

ومن الإيجاز في هذه الآيات قوله تعالى:" وليعفوا وليصفحوا" حذف معمول الفعل هنا الجار والمجرور والمقدر بـ ((عنه)) أي عن أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله الذين سبق ذكرهم، والسر البلاغي في الحذف هنا بالإضافة إلى أن اللغة العربية تقوم على الإيجاز والاختصار إلى أن الأمر هنا بالعفو والصفح يكون مطلوباً عن المذكورين وعن غيرهم.

١- الخليل. معجم مصطلحات النحو العربي.د. جورج متري وآخرون صـــ٣٥٠.

٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ٣ صـ١٨٧.

٣- صفوة التفاسير للصابوني جـ١٠ صـ١١.

وكذلك هناك حذف في قوله تعالى:" إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة".

فالرمي هنا لم يحدد بأي شيء كان ولكن السياق يحدده فلم يذكر إيجازاً واختصاراً، وإلا فإن المقدر بالفحش، أو بالزنى، أو بالفاحشة، ولعل السر في ذلك أن ذلك هو الرمي الحقيقي فكأن كل رمي سواه أقل في أثره ونتيجته على أولئك المحصنات والله أعلم.

أما الإطناب فيعرفه أهل البلاغة بأنه((أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف الأوساط))((١)).

أو هو:((زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة فهو عكس الإيجاز.

..... والإطناب يفيد المبالغة في الكلام، وزيادة التصور للمعنى المقصود))((٢)).

وقد ورد الإطناب في آيات حادثة الإفك فمن ذلك قوله تعالى:" إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم"

في هذه الآية الكريمة ورد الإطناب مرتين في قوله تعالى:"تلقونه بألسنتكم" وقوله جل ذكره:" وتقولون بأفواهكم".

((والتلقي لا يكون إلا بالألسنة والقول لا يكون إلا بالأفواه، فذكر

١- المصباح في المعاني والبيان والبديع. ابن الناظم صـ١٤٢.

٢- فن البلاغة. د . عبد القادر حسين صـ١٩٥.

هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذي اقتضاه المقام))((١)).

يقول العلوي في مثل هذا: ما يرد من الإطناب على جهة الحقيقة وهذا كقولنا رأيته بعيني، وقبضته بيدي، ووطئته بقدمي، وذقته بلساني، إلى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بما ذكرناه من الأدوات، وقد يظن الظان أن التعليق بهذه الآلات إنما هو لغو لا حاجة إليه، فإن تلك الأفعال لا تفعل وليس الأمر كما ظن بل إن ما يقال في كل شيء يعظم مناله، ويعز الوصول إليه، فيؤتي بذكر هذه الأدوات على جهة الإطناب دلالة على نيله، وأن حصوله غير متعذر،وعلى هذا ورد قوله تعالى.....:"إذ تلقونه بألسنتكم" لأن هذه الآية إنما وردت في شأن الإفك ..... فأعظم الله الرد والإنكار في ذلك بقوله:" وتقولون بأفواهكم" على أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنا لمن هي ظاهرة العفاف والستر))((٢)).

ومن الإطناب ما يسمى بالاعتراض التذييلي وقد ورد في هذه الآيات الكريمة في قوله تعالى:" والله يعلم وأنتم لا تعلمون" ((ويكون الاعتراض التذييلي أعني قوله تعالى:" والله يعلم وأنتم لا تعلمون" تقريرا لثبوت العذاب الأليم وتعليلا له))((٣))

١- علم المعاني. دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني.د. بسيوني فيود صـ١٧٧.

٢- الطراز صـ٢٣٥- ٢٣٦ بتصرف.

٣- تفسير أبي السعود جـ٣ صـ١٠٢.

أقول وهذا من التذييل الذي يصلح أن يكون مثلاً.

ومثله قوله تعالى:" والله سميع عليم" ((وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي)) ((١))

ومثل هذا قوله تعالى:" ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم"

ويقال هنا ما قيل هناك ((وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة)) ((٢)) .

ومن الإطناب في الآيات الكريمة قوله تعالى:" ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم" فقوله:"سبحانك" إطناب نوعه اعتراض يراد به التنزيه .

١- السابق صـــ ١٠٣.

٢- السابق صـــ١٠١.

في البيان والبديع

جمعت ما بين ماورد في هذه الآيات الكريمات من بيان وبديع نظرا لقلة الفنين فيها لاقتضاء الموضوع ، فالموضوع يعالج قضية من أخطر القضايا في المجتمع المسلم ، فالعرض عند المسلم حمى محرم لا يجوز الاقتراب منه لا قولا ولا فعلا ، وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعد المساس به مساسا بأمة الإسلام قاطبة ، ولذا فإن معالجة مثل هذه القضية تقوم على وضوح الحكم ، وقوة الحجة ، ورد الفرية ، وفي مثل هذه الحال ، لا يعتمد القول على الفن البياني ، ولا المحسن البديعي . إلا ما دعا السياق إليه ، ومن خلال تتبع الآيات الكريمة نجدها لا تخلو من هذين الفنين البلاغين بقدر ما يتطلبه النظم الكريم فمن ذلك قوله تعالى : ((والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم)) ((قيل ابتدأ به وقيل الذي كان يجمعه ويستشويه ويذيعه ويشيعه)) ((١)).

استعير التولي هنا للابتداء أو للجمع والاستيشاء أو للإذاعة والإشاعة حيث شبه هذه الأمور بالتولي ثم حذف المشبه واستعار له لفظ المشبه به واشتق منه الفعل تولى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وفي اختيار الفعل تولى دقة لا يقوم بها أي لفظ

١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ صـ٣٨٣.

من الألفاظ المذكورة لما في الولاية من القربي والـــود ، والعلاقـــة المحكمة بين المتولي والمتولى. والله أعلم ((لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم)) في اللفظين ((مسكم،أفضـــتم)) مجـــاز حيـــث عـــدهما الزمخشري مجازا في قوله:((ومن المجازمسه الكبر والمرض،ومسه العذاب)) ((١)).

وقوله:ومن المجاز:((.....وأفاضوا في الحديث:اندفعوا)).

فشبهت الإصابة بالمس ثم حذف المشبه واســـتعير لـــه لفـــظ المشبه به واشتق منه الفعل مس على سبيل الاستعارة التصـــريحية التبعية ومثل ذلك يقال في أفاض حيث شبه الاندفاع في حديث الإفـــك بالإفاضة ثم حذف المشبه واستعير له لفظ المشبه به واشـــتق منـــه الفعل أفاض على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وكذلك يلحظ

ما في الفعل مس وأفاض من أداء المعنى المراد ، ويلحـــظ فـــي ذلك تغليب الرحمة على العذاب مع عظم الذنب ، فالمســـاس مقابـــل الإفاضة إيحاء بجميل عفو الله تعالى ، وواسع رحمته ، فالمعلوم أن المس أول الملاقاة بين أي شيئين ، بينما الإفاضـــة تعنـــي الزيـــادة والتجاوز عن الحد المطلوب .

((يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان)) في هذه الآية الكريمة تبرز ((الاستعارة اللطيفة (لا تتبعوا خطوات الشيطان)

شبه سلوك طرق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبـــع خطـــوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة ((٢)).

١- أساس البلاغة صـــ٤٢٩ صـــ٣٥١.

٢- صفوة التفاسير للصابوني جـــ١٠ صـــ ١٩

ويلحظ هنا الدقة في لفظ تتبعوا، وفي الجمع خطـوات، فـالتتبع هنا المتابعة بحرص وعناية وقصد، والجمع يدل على تلون الشـيطان فيما يدعو إليه، وفي التدرج بمتبعيه.

((الخبيثات للخبيثين)) "يريد الزناة" ((١))

وقال بعضهم: ((وهو سبحانه يريد الزناة وعلى الجملـة لا تجـد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلا بلفـظ الكنايـة، لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظة الموضوع له كان الكلام معيبـاً من جهة فحش المعنى)) ((٢))

فيكون التعبير هنا بلفظي الخبيثات والخبيثين كناية عن موصوف وهو الزانيات والزناة.

ومن فنون البديع الواردة في هذه الآيات الكريمة فـن الالتفـات وهو "من الأمور التي يخرج فيها الكلام عن مقتضى الظـاهر، وهـو الانتقال بالأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صـيغة أخرى من هذه الصيغ، بشرط أن يكون الضمير المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه، بمعنى أن يعود الضمير الثـاني علـى نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول" ((٣))

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ٢ صـ ٣٠٦

٢- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع صـ ١٤٤

٣- فن البلاغة. د.عبد القادر حسين صـ ٢٨٠

"ويسمى أيضاً (شجاعة العربية) وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره، ويتورد مالا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات" ((١))

"قلت إن شرط الالتفات أن يكون في الكلام تعبيران، وأن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه ظاهر الكلام (السياق) وإن كان موافقاً لظاهر المقام" ((٢))

قال تعالى: ((لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا)) والالتفات في الآية "تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ، ثم العدول عنه إلى الغيبة في قوله تعالى: ((ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا)) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن بطريق الإعراض عنهم وحكاية جنايتهم لغيرهم على وجه المباثة، بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاماً ويزجرهم عن ضده زجراً بليغاً، فإن كون وصف الإيمان مما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم عن إساءتهم بأنفسهم، أي بأبناء جنسهم النازلين بمنزلة أنفسهم" ((٣))

١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير صـ٢٨٠

٢- أسرار الالتفات في ضوء الذكر الحكيم د.إبراهيم علي حسن داوود صـ٥

٣- تفسير أبي السعود جـ٤ صـ٨٩

"(فإن قلت) هلا قيل لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر (قلت) ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن" ((١))

ولعل في ما ذكره العالمان الجليلان ما يغني عن قيمة الالتفات البلاغية في الآية .

ومن فنون البديع في الآيات فن الطباق وهو فن يقوم على الجمع بين الضدين في الكلام، وكما قيل:

وبضدها تتميز الأشياء

ويسمى المطابقة وهي: "أن يجمع في الكلام بين المتضادين، من قولهم طابق الفرس إذا أوقع رجله في المشي مكان يده" ((٢))

ومن هذا الفن قوله تعالى: ((لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم))

وكذلك: ((وتحسبونه هيناً وهو عند الله العظيم))

١- تفسير الكشاف للزمخشري جـ٣ صـ ٥٦

٢- المصباح في المعاني والبيان والبديع. بدر الدين ابن مالك صـ٢١٠

فقد طابق بين الشر والخير،وبين الهين والعظيم" ((١))

ومنه قوله تعالى: ((ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة)) فطابق بين الدنيا والآخرة.

ومن ذلك توافق رؤوس الآيات في الحرف الأخير وهو ما يسمى بالسجع، فقد تردد ذلك بين حرف الميم، وحرف النون مسبوقين بحرف مد – ياء أو واو – على النحو التالي: عظيم– مبين– الكاذبون– عظيم– عظيم– مبين– حكيم– تعلمون– رحيم– عليم– رحيم– عظيم– المبين– كريم.

ويلحظ تكرار لفظة عظيم أربع مرات، ولفظة مبين ثلاث مرات، ولفظة رحيم مرتين، وهي ألفاظ تعطي بعداً دلالياً في ختام كل آية

مع مالها من تنغيم موح.

١– صفوة التفاسير للصابوني جـ١٠ صـ١٢

الخاتمة

ويظهر مما وفق الله إليه من بيان بلاغة هذه الآيات الكريمة أن القرآن لا يعالج قضية، ولا يورد حادثة، ولا يقص قصصاً إلا ويكتمل جوانبه من كل جهاتها، فكما هو كتاب تشريع وأحكام، فهو كتاب إعجاز بياني، يقوم على اللفظ الرائق، والمعنى العميق، والصورة البديعة المعبرة، وقد كانت حادثة الإفك من الأحداث التي عالجها القرآن الكريم، ومع أنها نزلت لإظهار الحقيقة، وتبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وإيضاح حكم الله في حق أولئك الخائضين، إلا أنها لم تخل من إشراقات بلاغية تنوعت بحسب تنوع فنون البلاغة وعلومها، وبالقدر الذي استدعاه المقام، ودعت إليه الحال.

ولعل في هذا البحث المتواضع ما جلى بعضاً من تلك البلاغة، وأظهر شيئاً من أسرارها، وبالله وحده التوفيق.

ملخص البحث

حادثة الإفك من الحوادث التي عالجها القرآن وبين الحكم فيها، ومع أن تلك الحادثة قد تناولت عرض أم المؤمنين عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنها قد نالت من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، فما كان لبيته إلا أن يكون أطهر البيوت، وما كان لزوجاته إلا أن يكن أشرف النساء، وقد جاء القرآن الكريم بالحكم الفصل في هذه الحادثة، وعالجها بأسلوب بلاغي رفيع، مما جعل البحث البلاغي فيها مستحقاً للوقوف عنده، واستجلاء مكنونه وسره، ولعل في هذه الدراسة ما يفي بالغرض المراد، وبالله التوفيق ومنه السداد.

ثبت المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة، الزمخشري. دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت- لبنان.

٢- أسرار الالتفات في ضوء الذكر الحكيم، د.إبراهيم علي حسن داوود. طـ١ مطبعة الأمانة- شبرا- مصر ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٣- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجاني. دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة- القاهرة.

٤- الإعراب الكامل للأدوات النحوية، عبد القادر أحمد ووليد عبد القادر.طـ١ دار قتيبة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٥- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي. مكتبة دار التراث- القاهرة.

٦- بلاغة التراكيب، دراسة في علوم المعاني. د.توفيق الفيل. مكتبة الآداب- القاهرة.

٧- البلاغة فنونها وأفنانها، د.فضل حسن عباس. طـ٩ دار الفرقان للنشر والتوزيع- عمّان- الأردن ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٨- التبيان في البيان، الإمام الطيبي. طـ١ دار الجبل- بيروت.

٩- تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري. دار التعاون للطبع والنشر- القاهرة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

١٠- تفسير أبي السعود، د.محمد العمادي الحنفي. مكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

١١- تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير.ط٧ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٢- التفسير الكبير، الفخر الرازي. ط٢ الناشر دار الكتب العلمية- طهران.

١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي. ط١ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٤- الخليل- معجم مصطلحات النحو العربي، د.جورج متري وهاني جورج. ط١ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٥- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني. مكتبة الأسرة- طبعة خاصة ٢٠٠٠م.

١٦- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل. المكتبة العصرية- صيدا- بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٧- صفوة التفاسير، محمد الصابوني. ط١ دار القرآن الكريم- بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٨- علم الجمال اللغوي، د.محمود سليمان ياقوت. دار المعرفة الجامعية- شارع سوتير الأزاريطة ١٩٩٥م.

١٩- علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د.بسيوني فيود. طـ٢ مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢٠- فتح القدير، محمد الشوكاني. طـ٤ مكتبة الرشد ناشرون ١٤٢٦هـ-٢٠٠٤م.

٢١- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري. دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- مدينة نصر- القاهرة.

٢٢- فن البلاغة، د.عبد القاهر حسين. طـ٢ عالم الكتب- بيروت- لبنان ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٢٣- كتاب الطراز، يحيى العلوي. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٢٤- الكشاف للزمخشري . دار المعرفة- بيروت- لبنان.

٢٥- لسان العرب لابن منظور. دار لسان العرب- بيروت- لبنان.

٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ضياء الدين بن الأثير. المكتبة العصرية- صيدا- بيروت ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٢٧- المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك. طـ١ دار الكتب- بيروت- لبنان ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢٨- المصباح المنير، أحمد الفيومي. طـ٢ شركة أبنـاء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٩- المعجم الوسيط. من مطبوعات مجمع اللغة العربيـة. المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيـع- اسـتانبول- تركيا.

٣٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشـام. طـ٣ دار الفكر- بيروت- لبنان ١٩٧٢م.

٣١- مفتاح العلوم للسكاكي. طـ٢ دار الكتـب العلميـة- بيروت- لبنان ١٤١٧هـ-١٩٨٧م.

٣٢- المفصل في علوم البلاغة العربية، د.عيسى العاكوب، طـ١ دار القلم للنشر والتوزيع- دبي- الإمـارات العربيـة المتحدة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٣٣- مقاييس اللغة، ابن فـارس. دار الكتـب العلميـة- اسماعيليان نجفي- إيران.

٣٤- المنصف في النحو واللغة والإعراب، نصـر الـدين فارس، عبد الجليل زكريا طـ١ دار المعـارف- حمـص ١٩٨٥م.

٣٥- النحو المصفى، د.محمد عيد. مكتبة الشباب- القاهرة ١٩٨٧